

الأمثال العربية القديمّة

بقلم الأستاذ / عبد الرحمن شليس

هذا الكتاب دراسة موضوعية جادة لأمثالنا العربية القديمة لما يتسم به من دقة في المنهج ، ووضوح في التفكير ، واستقصاء لجزئيات الموضوع ، ونصاعة الحجج والبراهين .
ومؤلف الكتاب هو المستشرق الألماني رودلف زلهاييم الذي يعتبر واحدا من المهتمين بالدراسات العربية ، ونشر كتابه باللغة الألمانية في عام ١٩٥٤ م .

وأما مترجم الكتاب فهو الدكتور رمضان عبد التواب أحد باحثينا الممتازين وترجع قصته مع ترجمة الكتاب الى عام ١٩٦٢ حين انتهى من دراسته للدكتوراه في ميونخ بألمانيا الغربية ، وأراد أن يترجم بعض آثار المستشرقين الجادة في مجال الدراسات العربية ، فكان هذا الكتاب من أوائل الكتب التي تطلعت نفسه الى ترجمتها .

وفي هذه الاشارة على الكتاب ، يهنا أن نتعرف على أهم ما جاء فيه من خلال عرضنا السريع له .

يقول المترجم في مقدمته التي تصدر الكتاب حول أهمية هذا النوع من التراث الشعبي : . الأمثال عند كل الشعوب مرآة صافية لحياتها ، تنعكس عليها عادات تلك الشعوب في رقيها وانحطاطها ، وبؤسها ونعيمها ، وأدائها ولذاتها . وقد وصفها ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد بأنها : وشى الكلام ، وجوهر اللفظ ، وحلي المعاني تخبرنا العرب ، وقدمتها المجمع ، وتطلق بها في كل زمان ، وعلى كل لسان ، فهي أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة ، لم يسر شيء مثيلها ، ولا هم عمومها . كما يقول عنها أبو الحسن بن وهب في كتابه البرهان في وجوه البيان : أما الأمثال ، فإن الحكماء والعلماء والأدباء ، لم يزالوا يضرّبون الأمثال ، ويبينون للناس تصرف الأحوال بالنظائر والأشباه والأمثال ، ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلباً ، وأقرب مذهباً . . . ولذلك جعلت القسّماء أكثر أداها ، وما دونته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم . .

ويقول المترجم عن مكانة الأمثال عند العرب : « بلغت العرب في ضرب الأمثال شأوا لا يدرك ، فسلخوا فيها كل مسلك ، ولم يخل كلام لهم من مثل تضاعفه ، كما زينوا بها فنون القول وتصاريفه ، فلا عجب أن يهتم بها اللغويون العرب الذين جمعوا لنا منها قدرا كبيرا منذ فجر التأليف في العربية ، وتناولوها بالشرح والتفسير ، كما جمعوا لنا قصصها التي حدثت بالفعل ، أو حيكت حولها وبينوا لنا مواردها ومضربها ، ورتبوها في ضروب مختلفة من الترتيب والتبويب » .

ويشير المؤلف المستشرق في المقدمة الى طليعة كتابه قائلا : « هذا الكتاب نتيجة الاشتغال بأعداد نشرة محققة لكتاب (الأمثال) لأبي عبيد القاسم بن سلام ، بشرح البكري ، ولا يدمي هذا الكتاب كمالا ، لأن الخطوة التي نالتها الأمثال وتناولها عند اللغويين والأدباء ، أدت الى تأليف الكثير من الكتب فيها ، وتخصيص الفصول الكاملة في كثير من كتب الأدب » .

ويحتوي الكتاب على خمسة فصول ، يبحث كل منها في جانب من جوانب الموضوع .

يتناول الفصل الأول : الأمثال العربية وقصصها ، ويعرف المثل من خلال أقوال علماء العرب ، فقد عرفه الزمخشري بقوله : « المثل في أصل كلامهم بمعنى المثل والنظير » . وقال المبرد : « المثل هو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول » . وقال الفارابي : « المثل ما ترضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه » . وقال ابن السكيت « المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ » . وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : الأمثال ، وهي حكمة العرب في الجاهلية والاسلام ، وبها كانت تعارض كلامها ، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق ، بكناية غير تصريح ، مجتمع لها بذلك ثلاث خلال : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه » .

وكان المؤلف حريصا على أن يضم لكتابه مجموعة من أمثالنا العربية القديمة التي يجدر بنا ذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر ، فمن الأمثال التي تعرض المسلمات بوضوح : (العصا من العصية) . و (الثمرة الى الثمرة ثمر) . ومن الأمثال التي تتعرض لصورتين من صور المصارع : (لا يجتمع السيفان في ضمد) و (عصا الجيسان أطول) و (أسمع جمعة ولا أرى طحنا) . ومن الحكم التي صارت أمثالا : (السر أمانة) و (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) و (العدة عطية) و (ثمر ما نال امرؤ ما لم يئل) .

وسم هذه الأمثال لها مقابل حر في كثير من الأحيان في أمثال الشعوب الأوروبية مما نتج عنه تشابهها . وهذا يرجع الى تأثير الثقافات . واختلاط الشعوب .

وتنقسم الأمثال العربية بحسب اصنافها - كما أشار المؤلف - الى ثلاثة اقسام ، وهي الأمثال القديمة ، فالأمثال الجديدة أو المولدة وهي التي جمعت وأضيفت الى الأمثال القديمة في مجموعات الأمثال منذ القرن الرابع الهجري ، وقد جمعها الميداني في كتابه (مجمع الأمثال) . ثم الأمثال المحدثنة ، وهي التي جمعها الأوروبيون وغيرهم في القرن التاسع عشر والقرن العشرين من مصر وسوريا وفلسطين وغير من الدول العربية ونشروها .

ومن المعروف ان كل مثل عربي كان مرتبطا بفصيلة وكانت تلك القصص تروى في كتب الأمثال عند العرب . وغالبية الأمثال المتداولة حتى اليوم كانت مرتبطة بقصص ، ولكن مع مر الزمن نسيت القصص ، وبقيت الأمثال نرددها في أحاديثنا ، ونكتبها في كتاباتنا .

تري متى بدأ اشتغال العرب بالتأليف في الأمثال ؟

هذا ما نتعرف عليه في الفصل الثاني الذي يتعرض لتناول كتب الأمثال قبل أبي عبيد . فيرجع المؤلف للاشتغال بالتأليف في الأمثال الى أوائل عصر الخلفاء الأمويين ، ويقال عن عبيد بن شربة الجرهمي وعلاقة بن كريم الكلبي وسحار بن عياض العبدي أنهم ألفوا كتباً في الأمثال . ويظهر ان مؤلفاتهم قد فقدت منذ عصر مبكر . وقد جمعت صحائف في الأمثال في نهاية العصر الجاهلي قبل مولد الرجال الثلاثة . غير انه لم تصل اخبار مؤكدة عن كتب الأمثال ومؤلفيها الا من القرن الثامن الى القرن التاسع الميلادي أي النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة .

ويشير المؤلف الى القدم مؤلف لكتاب في الأمثال وهو المفضل الضبي الكوفي من الذين عاشوا في عهد الدولة العباسية . كما يشير الى أبي فهد مؤرج بن عمرو السدوسي العجلي وله كتيب في الأمثال . والى غيره من البصريين الذين ضاعت كتب الأمثال التي ألفوها .

ويتناول المؤلف حياة أبي عبيد وكتاب الأمثال الذي كتبه في الفصل الثالث من الكتاب . . . يقول عن كتابه :

« وصل اليها كتاب أبي عبيد في الأمثال ، في عدة مخطوطات . الأمر الذي لا يعد غريباً في كتاب محبوب ومشهور كهذا الكتاب » .

وكان أبو عبيد قد جمع في كتابه أكثر من ألف مثل ، ومائتين وعشرين بيتاً من الشعر ، ومائة وثلاثين حديثاً مع قصصها في بعض الأحيان ، وقسم كتابه إلى أبواب في صنوف المنطق ، وفي جماع أمثال الرجال ، والأقربين ، والجلود ، والمجد ، والاعلاء ، والأموال ، والمعاش ، والمسلم ، والمعرفة ، والجهل ، والبخل والذم ، وغير ذلك من الصفات . كما ذكر مصادر كتابه والرجال الذين روى عنهم مثل : الأصمعي ، وابن المثني ، والمفضل الضبي وسواهم . والأمثال عنده مرتبة ترتيباً موضوعياً في تسعة عشر قسماً ، مقسمة في داخلها إلى أبواب مبدوءة في كل منها بالبسملة ، ويبدأ أبو عبيد دائماً - وهو لغوي - بشرح المثل شرحاً لغوياً وإفياً ، بعد أن يسبق ذلك بذكر مصادره . وانتشر كتابه في الأفاق انتشاراً واسماً - كما ذكر المؤلف - فقد شغل العلماء في العالم العربي ، ولا سيما في المغرب وإسبانيا .

ويذكر المؤلف الفصل الرابع لشرح البكري لأمثال أبي عبيد ، فيتناول حياة البكري ، ومخطوطاته ، وأسلوب روايته للكاتب ومصادر ترجمه ، وفضله في هذا الشرح .

ثم يتناول كتب الأمثال العربية القديمة بعد أبي عبيد في الفصل الأخير ، ومن بين هذه الكتب : كتاب أبي عكرمة الضبي ، وكتاب أبي محمد التوزي ، وكتاب يوسف بن السكيت ، وكتاب محمد بن حبيب ، وكتاب أبي اسحق الزهادي ، وكتاب الجاحظ .

ومعظم هذه الكتب غير موجودة الآن . أما الكتب الموجودة فمن أشهرها كتاب (جوهرة الأمثال) للعسكري ، وكتاب (مجمع الأمثال) للميداني ، وكتاب (المستقصى في أمثال العرب) للزمخشري .

تلك احتلال على تراث الأمثال عند العرب من خلال رؤية مستشرق ألماني أحب هذا النوع من تراثنا ، فدرسه ، وتمق فيه ، فكان هذا البحث القيم في أمثالنا العربية القديمة .

ولقد صدر الكتاب - وهو إضافة للمكتبة العربية في موضوعه - من دار الرسالة للنشر ببيروت .